

University of Kerala

First Degree Programme in Arabic

BA COMMUNICATIVE ARABIC

2015 Admission onwards

Sixth Semester

AC1641 – Core Course XI

Reading Modern Arabic Prose & Poetry

Prescribed Text Portions

البائسات – مصطفى لطفى المنفلوطي
الفردوس الإسلامى فى قارة آسيا – على الطنطاوى
الأدب للشعب – سلامة موسى
كنز مصر فى القلب – توفيق الحكيم
مولانا محمد على – أحمد شوقى
تربية البنات – حافظ إبراهيم
لم تشكنى – إيليا أبو ماضى

الوحدة الأولى

١. البائسات - مصطفى لطفى المنفلوطي

(من " النظرات " - الجزء الأول)

البائسات

زرتُ منذُ أيامِ حاكمِ بلدتي في منزله فرأيتُ بين يديه
فتاةً في الثانية عشرة من عمرها بائسةً عليلاً ، تشكو الماءَ
في عُنقها ، وجرحاً في ذراعها ؛ وهما في نفسها وتُدِير
في الحاضرين عيوناً حائرةً مضطربةً كأنما هي مركبةٌ على
زئبق رَجراج ، فسألت ما شأنها ، فعلمتُ أن أهلها زوجوها
وهي في هذه السن وعلى هذه السّداجة من رجل وحشيٍّ
اتّلقِ واتّلقِ ثم زفوها إليه فحاول أن يفرشها وهي على
حالة لا نستطيعُ معها أن تلم بفراشٍ فامتنعتُ عليه ، فأراد
اغتصابها فعمز ، فضربها هذا الضربَ الذي رأينا آثاره
في جسمها ، ففرتُ منه إلى منزلِ أهلها فنَقِمُوا منها هذا
الإباه الذي سمّوه بلادةً وغفلةً وأعادوها إلى منزل زوجها

كما يعاد المجرمُ الفارَّ من سجنه إليه مرةً أخرى ، وهناك عاد زوجها إلى عاداته معها ، فعادت هي إلى فرارها ، فعاد أهلها إلى قسوتهم وجبروتهم ، فلما أعيأها الأمرُ خرجتُ إلى الطريق العامَّةِ هائمةً على وجهها لا تعرفُ لها مذهباً ولا مُستقراً حتى رُفِعَ أمرُها إلى ذلك الحاكمِ فأمرَ باستدعائها وآواها في منزله ليخلصها من ذلك الموقفِ الذي كانت فيه بين ذراعَيْ وَجَبَةِ الأسدِ ، وما فرغ من هذه القصة حتى رُفِعَتْ إليه حادثةٌ أخرى تشبه الحادثةَ الأولى من جميع وجوهها إلا أن الزوجَ في هذه المرةِ خدع زوجته عن نفسها وسقاها مخدراً فمقرها كما عقر شقياً ثمود ناقتَه من قبل

إن المرأةَ المصريةَ شقيةٌ بائسةٌ ، ولا سببَ لشقائها وبؤسها إلا جهلها وضعفُ مداركها

إنها لا تحسِنُ عملاً ، ولا تعرفُ بابَ مرتزقٍ ، ولا تجدُ بين يديها سلعةً تتجرُّ بها وتقتاتُ منها إلا قلبَ الرجلِ ، فإن استطاعتُ أن تمتلكه عاشت عيشاً رغداً ، أولاً ، فلا

مَفْرَّ لها من الشقاء من المهدِ إلى اللحد
 ودونَ امتلاكها هذا القلبَ المقاسى المتحجرَ أهوال^ه
 عِظام^ه وعقبات^ه جسام لو كَافَ الرجلُ نفسه على مابه من قوة
 وأيدٍ وسعةِ حيلةٍ أن يجتازَ واحدةً منها لسقط بين اليأس
 والاستسلام

متى بلغت الفتاةُ سنَّ الزواجِ سواءاً كان ذلك على تقدير
 الطبيعةِ أو على تقدير أولئك الجهلاء أولياء أمر تبنك
 الفتاتين استئقل أهلها ظلّها وبرموا بها وحاسبوها على
 المضغة والجرعة ، والقومة والقعدة ، ورأوا أنها عالة عليهم
 وأن لاحق لها في العيش في منزل لا يستفيد من عملها
 شيئاً ووَدُّوا لو طلع عليهم وجهُ الخاطبِ أيّ خاطب كان
 يحملُ في جبينه آيةَ البشرى بالخلاص منها

وإن قوماً هذا مبلغ عقولهم من الفهم ، وقلوبهم من
 القسوة ، وهذه منزلة فلذات أكبادهم من نفوسهم ، لا يمكن
 بحال من الأحوال أن يفاوضوها في اختيار الزوج ، أو يُحسنوا
 الاختيارَ لها حين يختارون

فاذا دخلت هذا المنزل الجديد الذي لا تعرفه ، ولا
تعرفُ شأنًا من شؤون أهله دخلتُ في دور الجهاد العظيم
بينها وبين قلب الرجل

فان كانت ذات جمال أو مال فقد استوثقت لنفسها
وأمنت آلام الهجر وفجائع التطليق ، وإلا فهي تقاسى كل
صباح ومساء في الحصول على الحسن المجلوب ، والجمال
المصنوع ، آلاماً جثمانية تطفىء نور شبيبتها ، وتذبل زهرة
حياتها ، وتلاقى في سبيل مُصانعة الزوج ومداراته والبكاء
في موضع الابتسام إن ابتسم ، والابتسام في موضع البكاء
إن بكى ، ما يجعل أخلاقها فضاء مملوء بالكذب والكيد ،
والخبت والرياء ، وهي فوق ذلك تنتظر من فم زوجها في كل
ساعة كلمة الطلاق ، كما ينتظر القاتل من فم قاضيه كلمة الأعدام
ليست كلمة الأعدام من قبيل الاستعمال المجازي ، فما
أنسَ لا أنسى ليلة زرتُ فيها صديقا لي فرأيت عند باب
منزله امرأة بائسة ليس وراءها من الهم غاية ، وكأنما
هي الخلال رقة وذُبولا ، ووراءها صبية ثلاث يدورون

حولها ويُجاذبونها طرفَ رداءها، فتُسبِلَ فضلَ مِثْرِها على ما قِيا المقرحة رافةً بهم أن يلموا ببعض شأنها فيكوا لبكائها، فسألها عن شأنها فأخبرتني أنها مطلقة من زوجها وأن بيدها حكماً من المحكمة الشرعية بالنفقة لأولادها وقد مر عليها زمن طويل و « الإدارة » تماطلها في إنفاذه، فجاءت إلى هذا الصديق تستعين به على أمرها، ثم أخذت تشرح من حالها وحال أطفالها في مقاساة الشدة، ومعالجة القوت ما أسأل شوؤنا، وصعد زفرائنا، وأمسكنا له أكبادنا خشيةً أن تصدعا

تخففتُ أنا وصديقي شيئاً من آلامها فانصرفتُ، وفي صباح تلك الليلة سمعنا أن امرأة فقيرة ماتت بحمي دماغية فسألنا عنها فعلمنا أنها صاحبتنا بالأمس وأنها ماتت شهيدةً الزوجية الفاسدة

أيها الرجل : إن كنت تعتقدُ أن المرأة إنسان مثلك وهبها الله مدارك مثل مداركك ، واستعداداً مثل استعدادك ، فعلمها كيف تأكل لقمتهَا من حرفةٍ غير

هذه الحرفة النكيدة ، وإلا فأحسِن إليها وارحمها كما ترحم
كلبك وشاتك

إن كنت زوحاً فلا تطردّها من منزلك بعد أن تفضي
مأربك منها كما تصنعُ بنعلك التي تلبسُها ، وإن كنت
أباً فهذه فليدةُ كبدك فلا تضيقُ بها ذرعاً ، ولا تُلقي بها
في جُحرٍ وحشٍ صارٍ يأكلُ لحمها ، ويمتصُّ دمها ، ثم يُلقي
إليك بعظامها

ويأبها المحسنون : والله لا أعرفُ لكم باباً في الإحسان
تنفذون منه إلى عفو الله ورحمته أوسعَ من بابِ الإحسان
إلى المرأة

علموها لتجعلوا منها مدرسةً يتعلمُ فيها أولادُكم قبل
المدرسة ، وادّبوها لبنشأ في حجرِها المستقبلِ العظيم .
للوطن الكريم

• ﴿١٠﴾ تم الجزء الأول ويليه الجزء الثاني ﴿١١﴾

الوحدة الثانية الفردوس الإسلامي في قارة آسيا

الأستاذ عليّ الطنطاوي

مجلة المسلمون - العدد ٥، المجلد ٤

نحن الآن في الهند، في القارة التي حكمناها ألف سنة، في الدنيا التي كانت لنا وحننا، وكنا نحن سادتها، في (الفردوس الإسلامي المفقود) حقا، ولئن كانت لنا في أسبانيا أندلس فيها عشرون مليوناً، فلقد كان لنا ههنا أندلس أكبر، فيها اليوم أربعمئة مليون - خمس سكان الأرض، ولئن تركنا في الأندلس من بقايا شهدائنا، ودماء أبطالنا، ولئن خلقتنا فيها مسجد قرطبة والحمراء، فإن لنا في كل شبر من هذه القارة دما زكيا أرقناه، وحضارة خيرة وشيت جنباتها، وطرزت حواشيتها، بالعلم والعدل والمكرمات والبطولات، وإن لنا فيها المعاهد ومدارس، كم أنارت عقولا، وفتحت للحق قلوبا، ولا تزال تفتح القلوب وتثير العقول، وإن لنا فيها آثارا تفوق بجمالها وجلالها الحمراء، وحسبكم (تاج محل) أجمل بناء علا ظهر الأرض.

لقد مرت بالهند أربعة عهود إسلامية، عهد الفتح العربي، ثم عهد الفتح الأفغاني، ثم عهد المماليك، ثم عهد المغل. كان أول من حمل إلى الهند لواء الإسلام، هو محمد بن القاسم الثقفي، القائد الشاب الذي هجر منازل قومه في الطائف، ومشى إلى العراق في ركاب ابن عمه الحجاج، الذي ظلم كثيرا وقسا كثيرا، وكانت له هنات غير هينات، ولكنه هو الذي أبقى لنا العراقيين وفتح لنا المشرق كله والسند فبعث المهلب العظيم حتى أطفا نار الحرب الأهلية التي ضرمها الخوارج، وأرسل قتيبة العظيم حتى فتح سمرقند وبخارى وتركستان، وأوفد ابن عمه محمدا العظيم حتى فتح السند.

ولولا الإيمان الذي يصنع العجائب، ولولا الهمم الكبار التي تزيح الجبال، ولولا البطولة التي وضعها محمد ﷺ في قلوب العرب، لما استطاع هذا الجيش أن يقطع خمس محيط الكرة الأرضية، وهو ماش على أقدام، أو معتل ظهور الإبل والدواب، ما عرف قطارا ولا سيارة، ولا رأى على متن الجو طيارة، ولما وضع ابن القاسم الحجر الأول في هذا الصرح الهائل، وأدخل الشعاعة الأولى من هذه الشمس التي أشرفت في مكة إلى هذه القارة، وفتح السند وتبلغ سنه سن تلاميذ البكالوريا.

وعاد إليها لواء الإسلام مرة ثانية في القرن الرابع، عاد بالفتح على يد السلطان محمود الغزنوي، الذي خرج من غزنة وكانت قسبة بلاد الأفغان، وهي إلى الجنوب من كابل، فاخترق ممر خيبر، المضيق المهول الذي يشق تلك الجبال الشاهقة شقا، والذي تجزع أن تسلكه من وعورته ووحشته اسد الفلا، وجن الليالي السود، ثم دخل الهند وخاص عشرات من المعامع الحمر، التي يرقص فيها الموت، ويشتعل الدم، واجتمع عليه امراء الهند وأقيالها جميعا، فطحن أبطالهم ومزق جيوشهم، ومضى حتى جاب البنجاب، واستجابت له هاتيك البلاد، فأقام فيها حكم الله، أذاق أهلها عدالة الإسلام.

وجاء في هذا الطريق بعد أكثر من قرن السلطان شهاب الدين الغوري، فوصل من هذا الفتح ما كان منقطعاً، وأكمل منه ما كان ناقصاً، وملك شمالي الهند، وبلغت جيوشه دهلي، فأوقدت فيها منار الدعوة الإسلامية، فضوات بعد الظلمة، وأبصرت بعد العمى، ودوى في أرجائها الصوت الذي خرج من بطن مكة، صوت المؤذن ينادي في قلب الهند ذات الأرباب الآلهة والأصنام، إن خابت آلهتكم، وهوت أصنامكم، إنما هو إله واحد، لا إله إلا الله محمد رسول الله.

وقامت في الهند حكومة إسلامية قرارتها دهلي.

وبينما كان قطب الدين أيبك قائد السلطان الغوري بفتح المدن بسيفه كان الشيخ معين الدين الجشتي يفتح القلوب بدعوته فدخل الناس في الإسلام أفواجا، وكان هذا الفتح أبقى وأخلد، وكان منه اليوم ثمانون مليوناً من المسلمين في باكستان، وأربعون مليون غيرهم في هندستان، وسيبقى الإسلام في تلك الديار إلى آخر الزمان.

وولى الملك بعد السلطان الغوري قائده قطب الدين، الذي فتح دهلي وبدأ به عهد المماليك، وكان منهم ملوك عظام حقا، منهم قطب الدين هذا باني منارة قطب (قطب منار) التي يقف اليوم أمام عظمتها كل سائح يرد دهلي، وشمس الدين الاتلمس وغيث الدين بلبن.

ثم جاء الخلق وكان منهم الملك العظيم علاء الدين الخلجي الذي عدل في الناس، وضبط البلاد، وبسط الأمن، وأوغل في الهند.

وجاء من بعدهم آل تغلق، وكان منهم الملك الصالح المصلح فيروز، ثم جاء اللودهيون، وكان في أحمد آباد ملوك ذكروا الناس بالخلفاء الراشدين كمفضل الحليم الكجراتي.

وكان للعلماء في دولة المماليك دولة أكبر منها، وكان لهم سلطان أكبر من سلطان الملوك. ولقد روى اخونا أبو الحسن على الحسنى الندوى، ان السلطان شمس الدين التمش الذى دانت له البلاد كلها (وكان فى القرن السابع الهجرى) وخضع له ملوك الهند جميعا، كان يستأذن على الشيخ بختيار الكعكى فيدخل زاويته ويسلم عليه تسليم المملوك على الملك ولا يزال يكبس رجليه ويخدمه ويذرف الدموع على قدميه حتى يدعو له الشيخ ويأمره بالانصراف.

وان علاء الدين الخلجي اكبر ملوك الهند في زمانه استأذن الشيخ نظام الدين البدايوني الدهلوي في ان يزوره فلم يأذن له الشيخ.

ولما مرض الشيخ الدولة آبادى المفسر وأشرف على الموت عاداه السلطان ابراهيم الشرقي، ودعا عند رأسه ان يكون هو (أي السلطان) فداه من الموت.

وكانت زاوية نظام الدين البدايوني احفل بالقصاد وأزخر بالناس من قصر الملك، وكان سلطانه الروحي اعظم من سلطانه المادى .

كان ذلك يا سادة، لما لما تجرد هؤلاء العلماء من اثواب المطامع والرغبات، وزهدو بما في أيدي الملوك، فسعى الى ابوابهم الملوك، ونزعوا حب الدنيا من قلوبهم، فألقت بنفسها على اقدمهم الدنيا.

في عهد السلطان ابراهيم اللودهي سنة ٩٣٣هـ جاء بابر حفيد تيمورلنك من كابل وكسر جيوش اللودهي وكانت مئة ألف، باثني عشر ألفا من فرسان المغل المسلمين، وأسس دولة المغل التي كانت أكبر الدولة الإسلامية في الهند وكان من ملوكها، الملك الصالح أورنك زيب.

ولما مات بابر، وولي ابنه همايون، وثب عليه رجل عصامي لم يكن من بيت الملك ولكن كانت له همم الملوك، فانترع البلاد منه وأقام دولة كانت نادرة في الدول، ونظم الإدارة والمالية والجيش تنظيما لم يسبق إلى مثله، هو السلطان شيرشاه السوري، ولما مات عاد الملك إلى ابن همايون وهو الإمبراطور أكبر وكان من أعظم الملوك، حكم الهند كلها الا قليلا، وطال حكمه فكفر في آخر أيامه بالله وأكره الناس على الكفر، وابتدع لهم دينا جديدا، وأزال معالم الإسلام، وأبطل شعائره، وكان معه الجيش، وكان معه الأمراء، وكانت البلاد كلها في يده. فمن يقوم في وجهه، ومن ينصر الإسلام، ومن يدافع عن الدين؟

لقد قام بهذا شيخ ضعيف الجسم، قليل المال والجاه والأعوان ولكنه قوي الإيمان بالله، كبير النفس والقلب، قد استصغر الدنيا فهو لا يحفل بكل ما فيها من مال ومناصب ولذائد، واستهان بالحياة فهو لا يبالي على أي جنب كان في الله مصرعه، هو الشيخ أحمد السرهندي. ولم يكن يطمع باصلاح الأيمراطور، ولا يجد فيه أملا، فجعل يتصل بالقواد الصغار، وبالحاشية، ويعد لانقلاب شامل، لا ليس انقلاب عسكري، بل لانقلاب روحي فكري. وكان يرسل الرسائل تلتهب بالحماسة الدينية والعاطفة والإيمان. ولما مات أكبر وولي بعده ابنه جهانكير، استطاع الشيخ محمد معصوم ابن الشيخ السرهندي أن يشرف على تربية طفل صغير، هو أحد حفدة جهانكير.

ولم يكن هذا الطفل أكبر اخوته، ولا كان ولي العهد، ولم يكن يؤمل له أن يلي الملك، ولكن الشيخ وضع في تربيته جهده، وبذل له رعايته كلها، فنشأ نشأة طالب في مدرسة دينية داخلية، بين المشايخ والمدرسين، فقرأ القرآن وجوّده، والفقه الحنفي وبرع فيه، والخط وأتقنه، وألم بعلوم عصره، وربى مع ذلك على الفروسية. ودرّب على القتال. ولما مات جهانكير وولي ابيه شاه جهان، ولي كلاً من ابناؤه قطرا من أقطار الهند، وكان نصيب هذا الطفل وهو (أورانك زيب) ولاية الدكن.

وكان لشاه جهان زوجة لا نظير لحسنها في الحسن، ولا مثل لحيه إياها في الحب هي (ممتاز محل)، فماتت، فرثاها ولكن لا بقصيدة من الشعر، وخلدّها لكن لا بصورة ولا تمثال، لقد رثاها فخلدّها بقطعة فنية من الرخام ما قال شاعر قصيدة أشعر منها، ولا لحن موسيقي أغنية أعذب منها، ولا صور مصور لوحة أروع منها، فهي شعر، وهي أغنية، وهي صورة، وهي أعظم تحفة في فن العمران.

هي تاج محل، هذا البناء العجيب الذي أدهش بجماله الدنيا، وما زال يدهشها، والذي لا شعبة الرخام لهذه الأيدي العبقريّة فجعلت منه أجمل بناء شيد على ظهر هذه الأرض بلا خلاف، ونقشته هذا النقش الذي لم يعرف قط نقش في مثل دقة وفنه وسحره.

هذا القبر الذي يأتي اليوم السياح. نحن أقصى أميركا إلى (أكره) قرب دهلي ليشاهدوه، ويسمعوا قصته وهي أعظم قصص الحب على الإطلاق. لقد صدّع موت هذه الزوجة الامبراطور العظيم، فزهّد في دنياه لأنها كانت هي دنياه، وحقر ملك الهند لأنها كانت أعظم عنده من ملك الهند، ولم يعد له أرب بعدها إلا أن يملص من حاضره، ويوغل بذكرياته في مسارب الماضي، ليعيش بخياله معها، ويحس حرارة أنفسها، ثم استحال حبه إياها حبا لهذه القبر الذي

شاده لها، فجن به جنوبا، وصار يحس في برودته حرارتها، وفي جموده خطراتها، وفي صمته حديثها، وانصرف عن الملك وأهمله فوثب ابنه الأكبر فولى الملك إلا اسمه، وتصرف بالأمر وحده، ونازعه إخوانته، وجاء كل من إمارته: شجاء من البنغال، ومراد بخش من الكجرات، وأورنك زيب هذا من الدكن، واستطاع أن يغلبهم جميعا، وينفرد بالأمر ووضع أباه في قصر من قصور الملك، جعل له فيه ما يشتهي من الفراش والطعام واللباس والحاشية والجواري، وجعل له حيال سريره مرآة أقيمت على صناعة عجيبة لا تزال تهدش السياح يرى منها (تاج محل)، على البعد وهو مضطجع في سريره كأنه أمامه، وكان ذلك كل ما بقي له من لذائذ دنياه!

وكان جلوسه على سرير الملك سنة ١٠٦٨ هـ (قبل ثلاثمائة سنة) وكانى بكم تظنون ان هذا الملك الذي ربي بين كتب الفقه وأوراد النقشبندية، سيدخل خلوته، ويعمل من قصره مدرسة أو تكية، يصلي ويقرأ في كتب الفقه، ويسيب أمور الدنيا ويهملها زائد فيها، كلا يا سادة، وما هذه خلائق الإسلام، ولا هذي طريقته، إن العمل لاسعاد الناس وإقامة العدل ورفع الظلم وجهاد الكافرين المفسدين في الأرض، كل ذلك صلاة كالصلاة في المحراب، بل هو خير من صلاة النفل، وصوم التطوع، وعدل ساعة أفضل من عبادة أربعين سنة.

ذلك تروونه قد لبس لأمة الحرب من أول يوم (وكان يومئذ في الأربعين) ونهض بنفسه، يقضي على الخارجين، ويقمع المتمردين، ويفتح البلاد، ويقرر العدالة والأمن في الأرض، وما زال ينتقل من معركة يخوضها إلى معركة، ومن بلد يصلحه إلى بلد، حتى امتد سلطانه من سفوح همالية، إلى سيف البحر من جنوب الهند، وكان يملك الهند كلها، حتى قضى شهيدا في سبيل الله في أقصى الجنوب بعيدا عن عاصمته بأكثر من ألف وخمسمائة كيل. ومن خاض هذه المعارك، استنفدت وقته كله، ولم تدع له وقتا لإصلاح في الداخل، أو نظر في أمور الناس ولكن أورانك زيب حقق مع ذلك من الإصلاح الداخلي مالم يحققه مثله إلا قليل من الملوك.

كان ينظر في شؤون الرعية من أدنى بلاده إلى أقصاها، يمثل عين العقاب، كما كان يبطش بالمفسدين بمثل كف الأسد، فأسكن كل نامة فساد، وأفر كل بادرة اضطراب، ثم أخذ بالإصلاح فأزال ما كان باقيا من الزندقة التي جاء بها (أكبر) أبو جده، وكانت الضرائب الظالمة ترهق الناس ولا ينال أمراء المجوس لفتح من نارها، فأبطل منها ثمانين نوعا، وسن للضرائب سنة عادلة، وأوجبها على الجميع فكان هو أول من أخدها من هؤلاء الأمراء، ولولا هيبتة وشدته في الحق لأبوها عليه، وأصلح الطرق القديمة، وشق طرقا جديدة، وكفى لتدركوا طول هذه الطرق أن تعرفوا أن طريقا واحدا مما كان فتحه شيرشاه السوري، كان يمشي فيه المسافر ثلاثة اشهر، وكانت تحفه الأشجار من الجانبين على طوله وتتعاقد فيه المساجد والخانات!

وبنى المساجد في أقطار الهند، وأقام لها الأئمة والمدرسين، وأسس دورا للعجزة، ومارستانات للمجانين، ومستشفيات للمرضى.

وأقام العدل للناس جميعا، فلا يكبر أحد ان ينفذ فيه حكم القضاء، وكان أول من جعل للقضاء قانونا، وكان يحكم في القضايا الكبرى بنفسه لا حكما كفييا بل حكما بالمذهب الحنفي معلل له مدلا عليه، ونصب القضاء للناس في كل بلدة وقرية، وكان للإمبراطور امتيازات فألغاهها كلها، وجعل نفسه تابعا للمحاكم العادية، وان من له عليه حق ان يقاضيه به أمام القاضي مع السوق والسواد من الناس.

كان الرجل عالما، فقيها باررعا في الفقه الحنفي، فأدنى العلماء ولازمهم، وجعلهم خاصته ومستشاريه وبنى لهم المدارس، فجعل الرواتب.

ووفق إلى أمرين، لم يسبقه إليهما احد من ملوك المسلمين. الأول:

الأول: إنه كان لم يكن يعطي عالما عطية او راتبا إلا طالبه بالعمل، بتأليف او تدريس، لئلا يأخذ المال ويتكاسل. فيكون قد جمع بين السيئتين، أخذ المال بلا حق، وكتمان العلم - فما قول مدرسي الإفتاء والأوقاف؟

والثاني: أنه أول من عمل على تدوين الأحكام الشرعية، في كتاب واحد، يتخذ قانونا، فوضعت له وبأمره وبإشرافه ونظره الفتاوى التي نسبت إليه فسميت الفتاوى العالمية الكيرية، واشتهرت بالفتاوى الهندية، ويعرفها كل من يقرأ هذا المقال من العلماء لأنها من أشهر كتب الفقه الإسلامي، وأجودها ترتيبا وتصنيفا.

وكان- بعد ذلك كله- يؤلف، ألف كتابا في الحديث وشرحه وترجمه إلى الفارسية، ويكتب الرسائل البلاغية، التي تعد في لسانهم من روائع البيان، ويكتب بخطه المصاحف ويبيعها ليعيش بثمنها لما زهد في أموال المسلمين وترك الأخذ منها، وأنه حفظ القرآن بعد أن ولي الملك، وأنه كان شاعرا موسيقيا، ولكنه ترك ذلك، وكرهه، وأبطل ما كان للشعراء والموسيقين من هبات وعطايا ولم يكن يراهم لزمين لأمة لا تزال تبني في الأرض صرح مجدها.

وكان يصلي الفرائض في أول وقتها مع الجماعة لا يترك ذلك بحال، والجمعة في المسجد الكبير ولو كان غائبا عن المصر لأمر من الأمور، يأتيه يوم الخميس ليصلي الجمعة، ثم يذهب حيث شاء،

وكان يصوم رمضان معها اشتد الحر، وما أدراك ما حر الهند؟ ويحيي الليلي بالتراويح، ويعتكف في العشر الأواخر من رمضان في المسجد، ويصوم الإثنين والخميس والجمعة، في كل أسبوع من أسابيع السنة. ويداوم على الطهارة بالوضوء ويحافظ على الأذكار، ويمد أهل الحرمين بالصلاة المنكرة الدائمة. وكان مع ذلك آية في الحزم والعزم، والبراعة في فنون الحرب، وفي التنظيم الإداري. وكيف استطاع أن يجمع هذا كله؟

كيف قدر أن يتعبد هذه العبادة؟ ويقضي بين الناس؟ ويؤلف في العلم؟ ويكتب المصاحف؟ ويحفظ القرآن؟ ويدبر هذه القارة الهائلة؟ ويخوض هذه المعارك القصيرة؟ لقد كان يقسم بين ذلك أوقاته، يعيش حياة مرتبة، ووقت نفسه ووقت لأهله، ووقت لربه، وللإدارة والقتال والقضاء أوقاتها.

حكم الهند كلها خمسين سنة كوامل، وكان أعظم ملوك الدنيا في عصره وكانت ليده مفاتيح كنوز، وكان يعيش عيش الزهد والفقر، ما مد يده ولا عينه الى حرام، ولا أدخله بطنه، ولا كشف له أزراره، وكان يمر عليه رمضان كله لا يأكل الا ارغفة معدودة خبز الشعير، من كسب يمينه من كتابة المصاحف، لا من اموال الدولة.



سلامه موسى - الادب للشعب، منشورات الكفاح الهادف، القاهرة ١٩٥٦

هناك كلمات تجري على ألسنتنا أو أقلامنا تحمل دلالات جديدة لم تكن تعرفها الامم القديمة مثل الشعب والحرية والمساواة والشخصية والديمقراطية وحق الانتخابات والتعليم المجاني إلخ. ودلالة هذه الكلمات أن "الشعب" قد برز الى الوجود السياسي والاجتماعي. فقد كان الحكم في الامم القديمة تتولاه طبقة صغيرة حول الملك أو الإمبراطور. وكان الثراء مقصورا ايضا على طبقة صغيرة، وكان الشأن كذلك في التعليم والثقافة.

ومن هنا ايضا اقتصر الادب القديم على طبقة خاصة، ثم اشتغال الاديب بشؤون هذه الطبقة دون الشعب. لذلك نحن نقرأ كتب الادب العربي القديم، فلا نجد اية عناية بالصانع أو التاجر أو المزارع أو المرأة، لأن كل هؤلاء كانوا أميين لم يتعلموا، ولذلك نجد ان المؤلفين كانوا يعنون بقصص الملوك والامراء، وبما يجب عليهم من الواجبات السياسية للرعية. كما نجد النصح والوصايا والحكم من الملك سليمان الى أردشير الى الاسكندر الى معاوية، وجميعها في شأن الحكم والحرب والولاية والجود والعفو. وهذه كلها وأمثالها شئون كانت تهتم بها طبقة صغيرة حاكمة. اما الشعب، الباعة والتجار والمزارعون والخدم والبنائون والنجارون، كل هؤلاء لم يكونوا قد ارتفعوا بعد الى وجدان الأديباء فلم يحس هؤلاء بهم.

ولذلك ايضا نجد ان الادباء القدماء كانوا يكتبون لأدباء مثلهم: ثم كانت تكون مناقشة ما يكتبون في مجالس الأمراء والملوك وأئمة الدين، لأن أئمة الدين كانوا من الحاكمين والولاة، وكانت الحكومات كلها دينية. ولذلك نجد أيضا أن الأدب القديم كان على الدوام أسلوبيا تقليديا ولم يكن يكن ابتكاريا مستقبليا. وعبارة "قال فلان"، ثم عبارة قال "السلف الصالح" كلتاها تدل على أن الأديب العربي القديم كان ينشد الحكمة حلفه وليس امامه. وكان ما يكتبه للخاصة، بل أخص الخاصة التي تعلمت مثله ودرست ثقافته ونزعت نزعتة. وأخص الخاصة هذه كانت تلتفت الى الماضي، لان حقوقها التاريخية كانت تستند الى هذا الماضي وإلى احترام عاداته ولغته. فجذبت اليها الادباء الذين يؤيدون سلطانها.

وعندما نقرأ "البيان والتبيين للجاحظ" أو أشعار المتنبي، أو "الكامل" للمبرد، نحس أننا إزاء أدباء، إما يعيشون في بلاط أحد الأمراء، وإما يستندون في حياتهم الذهنية إلى تقاليد لغوية وأدبية ودينية وسياسية تمت إلى بلاط أحد الأمراء. أما الشعب فلا يحسون أي وجدان له.

ولكن هذا القول لا يمكن ان يذهب على اطلاقه. ففي فترات من تاريخ الامم العربية انتشرت التجارة، بل انتشر شيء من الصناعة، وخاصة في مصر والعراق. فظهر كتاب الف ليلة وليلة وهو كتاب للشعب يكبر من شأن التاجر "السندباد" ويزود قراءه الفقراء بأحلام الجائع اي وصف حياة الأثرياء والملوك والامراء. ولكن هذه النزعة لم ترتق على نضج لأن عوامل القوة لم تتوافر للشعب.

ولكن الشعوب العربية في أيامنا عرفت اعظم كلمة من كلمات القرن العشرين، كلمة (الديمقراطية). ومع ان بعض الساسة في مصر قد عبثوا بها، فان عبثهم سيذهب هباء وتمكث هي في الارض.

فالديمقراطية والشعب والمساواة والتعليم العام كلمات ميمونة. وبسبب هذه الكلمات الميمونة عاد التاجر الى الظهور واوشكنا ان نعرف مقام الصناعة وظهرت الصحف فأخصبت حياة الشعب. وصار النجار والبقال والتلميذ، بل احيانا المزارع- هذا الرجعي العريق في رجعيته- اصبح كل هؤلاء يقرأون وتتفصح اذهانهم في آفاق رحبة من السياسة والادب والاجتماع. وزودتهم الصحف بكل ذلك ولكن على مستوى منخفض. وتعلم الصحفيون لغة جديدة يكتبون بها ليست هي لغة أردشير "الذي أوصى ابنه فقال .." وإنما هي لغة الشعب

يقول الفرنسيون، ويحسنون عندما يقولون: "ما ليس واضحا ليس فرنسيا" لان الوضوح هو المنطق. والكاتب الواضح هو الكاتب الفاهم. وعندما يفهم الكاتب يفهم القارئ، وعندئذ يكون التجاوب ويكون الاختمار الذهني.

كان فولتير يقول عن نفسه كلمة أحب أن أقولها عن نفسي وأفخر بها - "ليست عميقا ولكني على الدوام واضح". لغة الشعب، لغة الصحافة، يجب ان تكون لغة الوضوح. وعلينا نحن الكتاب ان نهدف الى بلاغة شعبية جديدة، فننزل الى الشعب قبل ان نرفعه اليها، بل اننا لن نستطيع ان نرفعه اليها الا اذا نزلنا اليه. ويجب ان نهدم الحاجز الذي

يفصل بين الشعب والأدب باتخاذ الأسلوب الميسر والكلمة المألوفة. ويجب ان ننأى به أردشير ونحدثه عن أينشنيين وعن إلغاء الفكر والجهل والمرض، وعن حق الشبان في السعادة وحق المرأة في الإنسانية. يجب أن نؤلف المقالة والقصة والكتاب للشعب ونعرض على الشباننا الآداب والفنون التي تخصب حياتهم وترفعهم من الاهتمامات الشخصية الوضيعة إلى المشكلات الاجتماعية والبشرية حتى يحيوا الحياة التاريخية وحتى يحس كل منهم أنه بطل له رسالة وله شرف. رسالة وشرف، أي شيء في الدنيا أعظم من هذا؟

٢. كنز مصر في القلب

توفيق الحكيم (من عودة الروح)

كان الضيفان في تلك الأثناء يرشفان القهوة وقد غرقا في كرسيين كبيرين ووجهاهما مقابل نافذة مفتوحة تطرح أمام عينيها فضاء أخضر لا حد له. وسكون ساعة الظهيرة التام حيث الفلاحون في دورهم يستريحون أو تحت ظلال الأشجار بقرب السواقي. وسكنت البهائم أيضا وربض كلب العزبة وأغمض إحدى عينيها. حتى الطيور كأنها في هدنة قد هدأت علي الأغصان فوق رعوس الفلاحين الراقيدين وقد أطلبت زقزقتها.

وهبّ عند علي الضيفان نسيم جميل فأغلق الفرنسي عينيها نصف إغلاق وقد مال برأسه إلى الورا وأخذ يدخن من لفاقة في يده وكأنما هو في حلم ساحر. ولكن رفيقه الإنجليزي لم يفقد نشاطه ولم يتراخ. بل دسّ يده في جيبه وأخرج غليونه وأخذ يحشوه بالتبغ وهو معتدل الجلسة منتصب القامة متزن الحركة قوي النظرة، حتى فرغ من غليونه ووضعها في فمها وأوقده. فاستوى واقفا وأراد أن يمشي جيئة وذهابا في الحجرة أو أن يخرج إلى حديقة المنزل. ولكن صاحبه الفرنسي مدّ يده إليه وأومأ له بلطف أن يجلس حيث كان. ثم قال له في صوت النائم:

إلى أين؟ ألا يؤثّر فيك هذا النسيم اللرفيق يا مسترّ بلاك؟

فالتفت إليه الإنجليزي ثم التفت إلى النافذة كأنما يبحث عن هذا النسيم يريد أن يراها بعينيها. وكان الفلاحون عندئذ قد بدأوا ينهضون زرافات ووحدا كل يحمل فأسه أو منجله كي يستأنفوا أعمالهم بالحقول. فقال الإنجليزي لرفيقه:

لا أرى إلا أسرابا من نوي الجلابيب الزرقاء.

فنظر الفرنسي إلي الفلاحين ثم قال معجبا:

ما أجمل ذوقهم، لون لباسهم كلون سمائمهم.

فارتسمت علي فما الإنجليزي إبتسامة تهكم وقال:

إنك تبالغ إذ تحسب هؤلاء الجهلاء ذوقا.

فأجاب الأثري الفرنسي بإيمان وقوة:

جهلاء! ان هؤلاء الجهلاء يا مستر بلاك أعلم منا

فضحك الإنجليزي وقال أيضا في تهكم:

لأنهم ينامون مع البهائم في حجرة واحدة.

فأجاب الفرنسي بجد:

نعم، وبالأخص الأنهم ينامون مع البهائم في قاعة واحدة.

فالتفت إليه مستر بلاك محدقا ومبتسما:

إنها نكتة ظريفة مسيؤ فوكيه.

فأجاب الفرنسي:

بل حقيقة تجهلها أوروبا للأسف. نعم إن هذا الشعب الذي نحسبه جاهلا ليعلم أشياء كثيرة. ولاكنه يعلمها بقلبه لا بعقله. إن الحكمة العليا في دمه ولا يعلم، والقوة في نفسه ولا يعلم. هذا شعب قديم. جيّ بفلاح من هؤلاء وأخرج قلبه تجد فيه رواسب عشرة آلاف سنة من تجارب ومعرفة رسب بعضها فوق بعض وهو لا يدري.

نعم هو يجهل ذلك، ولكن هناك لحظات حرجة تخرج فيها هذه المعرفة وهذه التجارب فتُسعفه وهو لا يعلم من أين جاءت. هذا ما يفسر لنا نحن الأوروبيين تلك اللحظات من التاريخ التي نرى فيها مصر تطفر طفرة مدهشة في قليل

من الوقت، وتأتي بأعمال عجيبة في طرفة عين. كيف تستطيع ذلك إن لم تكن هي تجاريب الماضي الراسية قد صارت في نفسها مصير الغريزة، تدفعها إلى الصواب وتسعفها في الأوقات الحرجة وهي لا تدري. لا تظن يا مستر بلاك أن هذه الآلاف من السننين التي هي ماضي مصر قد انطوت كالحلم ولم تترك أثراً في هؤلاء الأحفاد. وأين إذن قانون الوراثة الذي يصدق حتى علي الجماد؟ ولئن كانت الأرض والجبال إن هي الا وراثة طبقة عن طبقة، فلماذا لا يكون ذلك في الشعوب القديمة التي لم تتحرك من أرضها ولم يتغير شيء من جوها أو طبيعتها؟ نعم إن أوروبا اليوم سبقت مصر، ولكن بماذا؟ بذلك العلم المكتب فقط الذي كانت تعتبره الشعوب القديمة عرضاً لا جوهراً، ودلالة سطحية علي كنز دفين، لا أنه هو في ذاته كل شيء. إن كل ما فعلناه نحن الأوروبيين الحديثي النشأة أن سرقنا من تلك الشعوب القديمة هذا الرمز السطحي دون الكنز الدفين. لذلك جيء بأوروبي وافتح قلبه تجده خاليا خاوياً.

الأوروبي انما يعيش بما يلقن ويعلم في صغره وحياته، لأنه ليس له تراث ولا ماض يسعفه بغير أن يعلم. أحرم الأوروبي المدرسة يصبح أجهل من الجهل. قوة أوروبا الوحيدة هي في العقل، تلك الآلة المحدود التي يجب أن نملأها نحن بإرداتنا. أما قوة مصر ففي القلب الذي لا قاع له. ولهذا كان المصريون القدماء لا يملكون في لغتهم القديمة لفظة يميزون بها بين العقل والقلب. العقل والقلب عندهم كان يعبر عندما بكلمة واحدة هي القلب. وسكت الأثري الفرنسي برهة ونظر الى وجه المستر بلاك ليتعرف أثر ما قال فيه، فوجد ملامح جامدة وشفنتين تنفرجان عن ريبة وشك. فاستطرد الفرنسي يقول:

نعم يا مستر بلاك، هؤلاء الفلاحون لهم ذوق وذوق جميل. وهم اذا سألتهم عن كلمة ذوق لجهلوا معناها. أما نحن فنعرف جيداً معني كلمة "ذوق"، ولكن نق أن فينا عدداً كبير ليس له ذوق. نعم هذا هو الفرق الوحيد بيننا وبينهم: إنهم لا يعلمون ما عندهم من كنوز.

١. مولانا محمد علي - أحمد شوقي

يا قدس هبني من رياضك ربوة
هو من سيوف الله جل جلاله
بطل حقوق الشرق من أعماله
وقبائه نسج الهنود فهل ترى
النيل يذكر في الحوادث صوته
قل للزعيم محمد نزل الأسي
فمشى إليك بجفنه وبمائه
نم في جوار الله ما بك غربة
الفتح وهو قضية قدسية
افتى بدفئك عند سيدة القرى
بلد بنوه الأكرمون قصورهم
قد عاشت تنصر وتمنح أهله

لنزيل تربك واحتفل بلقائه
أو من سيوف الهند عند مضائه
وقضية الإسلام من أعبائه
دفنوا الزعيم مكفنا بقبائه
والترك لا ينسون صدق بلائه
بالنيل واستولى على بطحائه
وإلى أخيك بقلبه وعزائه
في ظل بيت أنت من أبنائه
يا طالما ناضلت دون لوائه
مفت أراد الله في إفتائه
وقبورهم وقف على نزلائه
عونا فكيف تكون من غربائه

٢. تربية البنات - حافظ ابراهيم

مَنْ لِي بِتَرْبِيَةِ النِّسَاءِ فَإِنَّهَا
الْأُمُّ مَدْرَسَةٌ إِذَا أَعَدَدْتَهَا
الْأُمُّ أَسَاتِذُ الْأَسَاتِذَةِ الْأُولَى
أَنَا لَا أَقُولُ دَعَا النِّسَاءَ سَوَافِرًا
يَدْرَجْنَ حَيْثُ أَرَدْنَ لَا مِنْ وَازِعٍ
يَفْعَلْنَ أَفْعَالَ الرِّجَالِ لِيُوهِيَا
فِي دَوْرِهِنَّ شُؤْنَهُنَّ كَثِيرَةً
كَلَّا وَلَا أَدْعُوكُمْ أَنْ تُسْرِفُوا
لَيْسَتْ نِسَاؤُكُمْ حُلَى وَجَوَاهِرًا
لَيْسَتْ نِسَاؤُكُمْ أَثَاثًا يُفْتَنَى
تَنْشَكَلُ الْأَزْمَانُ فِي أَدْوَارِهَا
فَتَوَسَّطُوا فِي الْحَالَتَيْنِ وَأَنْصِفُوا
رَبُّوا النِّبَاتِ عَلَى الْفَضِيلَةِ إِنَّهَا
وَعَلَيْكُمْ أَنْ تَسْتَبِينَ بِنَائِكُمْ

فِي الشَّرْقِ عَلَّهَ ذَلِكَ الْإِخْفَاقُ
أَعَدَدْتَ شَعْبًا طَيِّبَ الْأَعْرَاقِ
شَغَلْتَ مَا تَرَاهُمْ مَدَى الْأَفَاقِ
بَيْنَ الرِّجَالِ يَجْلَنَ فِي الْأَسْوَاقِ
يَحْدَرْنَ رَقَبَتَهُ وَلَا مِنْ وَاقِي
عَنْ وَاحِيَاتِ نَوَاعِسِ الْأَحْدَاقِ
كَثُورُونَ رَبَّ السِّيفِ وَالْمِزْرَاقِ
فِي الْحَجَبِ وَالتَّضْيِيقِ وَالْإِرْهَاقِ
خَوْفَ الضِّيَاعِ تُصَانُ فِي الْأَحْقَاقِ
فِي الدَّوْرِ بَيْنَ مَخَادِعِ وَطَبِاقِ
دُوْلًا وَهُنَّ عَلَى الْجُمُودِ بَوَاقِي
فَالشَّرُّ فِي التَّقْيِيدِ وَالْإِطْلَاقِ
فِي الْمَوْقِفِينَ لَهُنَّ خَيْرٌ وَثَاقِ
نُورَ الْهُدَى وَعَلَى الْحَيَاءِ الْبَاقِي

٣. كم تشتكي - إيليا أبو ماضي

كم تشتكي ونقول إنك معدم
ولك الحقول وزهرها وعبيرها
والماء حولك فضة رقراقة
هشت لك الدنيا فما لك واجما؟
إن كنت مكتئبا لعزّ قد مضى
أنظر فما تطلّ من الثرى
ما بين أشجار كأنّ غصونها
وعيون ماء دافقات في الثرى
أحبابنا ما أجمل الدنيا بكم

والأرض ملكك والسما والأنجم؟
ونسيمها والبلبل المترنم
والشمس فوقك عسجد يتضرم
وتبسّمت فعلام لا تتبسّم
هيهات يرجعه إليك تندّم
صور تكاد لحسنها تتكلم
أيد تصفق تارة وتسلم
تشفي السقيم كأنما هي زمزم
لا تقبح الدنيا و فيها أنتم